دور اللغة في تنمية الطاقات البشرية وتجربة اللغات الأجنبية في البلدان الإفريقية (1)

إدريس الكتاني
الأستاذ بجامعة محمد الخامس (الرباط)

ان اللغة ليست اداة تفاهم واتصال فقط ، ولكنها أيضا اداة للتفكير والتأمل . والانسان يفكر باللغة التي يتكلمها ، ويعيش تحت تأثير قيمها الثقافية والعلمية والدينية ، وباختصاصه واستيعابه لرموز لغته الوطنية، وكناياتها ، واستعاراتها ، وايحاءاتها ، ودلالاتها الخاصة بالزمان والمكان ، يستطيع أن يدرك الحقائق العلمية ، والظواهر الاجتماعية ، ويتجاوب مع الناس والاحداث، وينمي طاقاته العقلية والبدنية والانتاجية ، وذلك ببذل نفس المجهود المعتاد في البلدان المتقدمة .

لكن عندما يفرض على شعب متخلف استعمال لغة اجنبية عنه ، لاسباب استعمارية او سياسية او طبقية او مذهبية ، هل تستطيع اللغة الاجنبية ان تؤدي وظيفة اللغة الوطنية ، وان تصبح اداة سهلة لتحقيق الاهداف الوطنية ، وخاصة ما يتعلق بمحاربة الامية ، وايقاظ الوعي الوطني ، ونشر الثقافة والقيم الاخلاقية ؟ وهل سيكون بوسعها ان تساعد على تعميم التعليم ، وتحقيق تطور اقتصادي واجتماعي لعموم المجتمع ؟ ..

ان الدور الهام الذي لعبته اللغات في تاريخ الحضارات والفكر البشري ليس بالشيء المجهول الذي يحتاج الى توضيح جديد هنا ، واذا كانت الدول الكبرى خلال التاريخ ، وفي العالم المعاصر ، تهتم بتطوير ونشر لغاتها الوطنية، فلتقديرها لهذا الدور ، وشعورها بأهميته البالغة في بنيانها الاجتماعي ، وعظمتها الدولية .

وتعتبر فرنسا من اشد الدول المعاصرة احساسا بهذا الدور ، ولذلك فهي تبذل في سبيل لغتها ما لا تبذله اية دولة اخرى .

منظمة اليونسكو تنصح الدول النامية باستعمال لغاتها الوطنية في التعليم

وفي تقرير اعدته لجنة من خبراء اليونسكو كلفت بدراسة مسالة الحفاظ على اللغات الوطنية للشعوب النامية ، وتطورها ، والتدابير التي يمكن اتخاذها للتعجيل باستعمالها في التعليم ، طبقا لرغبات هذه

---

(1) « نشر هذا البحث أولا باللغتين الفرنسية والانجليزية بمجلة « Cahiers Africains d'Administration Publique » التي يصدرها المركز الافريقي للتكوين والبحث الاداري للتنمية « CAFRAD » التابع للامم المتحدة بمدينة طنجة ، في عددها الخاص بتحضير المؤتمر الافريقي المنعقد بطنجة في 18 شتنبر 1972 لدراسة « مشاكل نمو الطاقات البشرية والتسيير في القطاع العام الافريقي » عدد 8 غشت 1972 . وقد تفضل السيد الاستاذ الكتاني باتحاف مجلتنا بهذا البحث القيم الذي نختصره للقراء .

الشعوب ، وعلى اساس التجارب المعروفة فى البلدان الاخرى ، اكدت لجنة اليونسكو هذه انه لا يوجد اي عائق فى نظام لغة ما يحول بينها وبين جعلها لغة حضارة حديثة ، وترى هذه اللجنة انه اذا كانت (اللغة الأم) كفيلة بأن تكون لغة للتعليم الجامعي والتقني ، فانه يجب استعمالها لهذا الغرض ، وطلبت اللجنة ايضا من هيئة اليونسكو ان « تدرس » امكانيات تنسيق المصطلحات العلمية والفنية للغات العلمية ، وذلك لمساعدة اللغات النامية على ان تكون لها مصطلحاتها الخاصة ، وان تتطابق فى ذلك ، بقدر الامكان ، مع مصطلحات اللغات العالمية .

البنك الدولي للبناء والتنمية ينصح باستعمال اللغة الوطنية فى التعليم

وهناك مؤسسة مالية دولية اخرى اتخذت موقفا من اللغات الاجنبية يتفق مع موقف اليونسكو ، ففي سنة 1963 طلبت الحكومة المغربية من البنك الدولي للبناء والتنمية القيام بدراسة عن الحالة الاقتصادية والاجتماعية بالمغرب ، وفى التقرير الذي اعدته بعثة البنك ، بعد ان قضت فى المغرب شهرا فى الدراسة والبحث ، نصحت الحكومة المغربية ، ومن وجهة نظر اقتصادية بحت ، بأن تضع حدا لتعليم اللغة الفرنسية فى المدارس الابتدائية توفيرا لـ 30 ٪ من وقت التلاميذ والمعلمين ، وتوفيرا لنحو 7 ملايير من الفرنك التي تنفق بدون طائل فى هذا المجال ، وتخصيص هذا المبلغ الضخم فى طبع الكتب ، واعداد الادوات المدرسية ، وتكوين المعلمين ، الى آخر ما جاء فى التقرير من النصائح المتعلقة بتخطيط سياسة وطنية ملائمة لحاجاتنا ومصالحنا .

تجربة اللغة الاجنبية فى شرق وغرب افريقيا

كانت اللغة الانجليزية حتى سنة 1963 هي اللغة الرسمية لدول افريقيا الشرقية الثلاث : طنجانيقا وكينيا واوغندا ، كما هي الحال فى مستعمراتها الافريقية السابقة الاخرى ، ولكن هذا لا يعني اكثر من انها لغة نخبة تمثل نسبة ضئيلة من السكان ، لا يتجاوز مستواها بضعة اعوام فى التعليم .

واكبر مشكلة واجهتها هذه البلدان بعد استقلالها السياسي هي ان الاسلوب التربوي عندها من وضع النظام الاستعماري الذي عمل على ان يتناسب ويتطور مع مصلحته هو لا مصلحة البلد الافريقي الذي يعنيه الامر ، ونظرا لذلك فان الشخصية الوطنية لاغلب الدول الافريقية اصبحت هي نفسها من مخلفات الاستعمار ، فليس من المدهش اذن ان عددا قليلا جدا من هذه الدول هي التي استطاعت ان تتبنى لغة فصحى للتلقين (Langue véhiculaire) تكون فى نفس الوقت « وطنية » و « افريقية » .

ان الاساتذة لوو وكرانت ووليامس (Low, Grant et Williams) فضلا عما اكدوه من ان الاطفال الذين يدرسون بلغة تختلف عن لغة الامومة لا يتقدمون الا ببطء ، يعترفون بأن الانجليزية تعلم بطريقة سيئة جدا فى افريقيا ، واغلب المعلمين فى عدة نواح افريقية لم يتلقوا اي تكوين ، وخاصة فى افريقيا الغربية ، وحسب تقرير بانجو Banjo سنة 1962 ، كان يوجد فى نيجيريا الغربية 26 000 معلم من بين 40 000 لم يقع تكوينهم .

« وهذه الانتقادات تتوجه خاصة الى المدارس الابتدائية ، ومع ذلك فان التعليم الثانوي ايضا لا يقوم الا على اقلية من التلاميذ ، ويوشك الامر ، كما هو حاصل فى الهند ، ان تنفصل النخبة عن الشعب ، بسبب استعمال اللغة الانجليزية » .

وبعد استقلال الدول الافريقية استعملت بعض اللغات الافريقية المحلية فى نطاق معين ، فى المستوى الابتدائي ، ولكن الانجليزية والفرنسية لم تلبثا ان دخلتا فى سلك التعليم ، وغالبا فى السنة الاولى من الثانوي، واصبحتا لغات فصحى .

ويلاحظ ان طانجانيقا هي احدى البلدان الافريقية النادرة ـ باستثناء الدول العربية الافريقية ـ التي لها لغة وطنية ، هي اللغة السواحلية . وقبل استقلال هذه البلاد فى 2 دجنبر سنة 1961 ، عمل حزب الاتحاد الوطني الافريقي لطانجانيقا « Tanu » على تعليمها فى مدارس وطنية خاصة تابعة له ، كما عمل على تعليمها للكبار فى البلاد كلها ، ولم يتردد بعد استقلال البلاد فى استعمالها كلغة رسمية فى دوائر الحكومة والبرلمان والتعليم ، وشرع فى ترجمة النصوص التشريعية الى هذه اللغة ، وفى سنة 1965 اصبحت اللغة السواحلية اجبارية فى جميع المدارس الثانوية ، وفى سنة 1968 فقط نظم اول درس جامعي عن الادب السواحلي فى تنزانيا .

ولم تصل سنة 1970 حتى فرض على جميع التلاميذ ان يجتازوا امتحانا فى هذه اللغة فى مستوى البكالوريا . « مع العلم بأن تعليما متقدما باللغة الانجليزية لا يزال مفروضا فى السنة الاولى من التعليم الثانوي ، ويتمنى فى بعض الاوساط ان تصبح التربية الوطنية كلها بما فيها التعليم الجامعي باللغة السواحلية ، ومع ذلك فان اعداد المواد البيداغوجية قلما يتجاوز مستوى المدارس الابتدائية » .

وفى سنة 1970 ايضا اعتبرت اللغة السواحلية الوحيدة التي يمكن لمرشحي الاتحاد الوطني الافريقي استعمالها اثناء حملتهم الانتخابية ، وفعلا فقد صرح نائب رئيس الجمهورية رشيدي كاواوا قائلا : « اذا كان السكان لا يعرفون اللغة السواحلية فان جميع المرشحين يجب أن يكونوا مصحوبين بمترجم » ، وعندما اصدر كاواوا الأمر لجميع الادارات الرسمية ، والى لجان الاتحاد ، سواء على المستوى الاقليمي او فى المقاطعات ، باستعمال اللغة السواحلية كلغة تعبير ادارية قدم ، بصفة خاصة ، الملاحظات التالية : « ان اكبر جزء من الاوراق المستعملة لا تزال حتى الآن مطبوعة بالانجليزية مع اننا نعلم جيدا ان اغلبية الذين يعنيهم الامر لا يعرفون هذه اللغة ، انها اهانة موجهة الى الامة » .

وفضلا عن ذلك فقد قام الرئيس نيريرى بترجمة يوليوس قيصر (Jules César) لشكسبير الى اللغة السواحلية ، وهو الذي قال : « فى خلال ثماني سنوات لم التجىء لمترجم الا مرة واحدة » .

وقد اكتسبت اللغة السواحلية اهميتها من عدة عوامل ، فهي منتشرة فى جزء كبير من افريقيا الشرقية ، وخاصة فى الكونغو الشرقي واوغندا الجنوبية وهي ايضا منتشرة فى كينيا ، فضلا عن انها اصبحت اللغة الرسمية فى تنزانيا ، وهي لغة تعبير عن جميع الاشياء والافكار ، وبفضلها استطاع موظفو الاتحاد الوطني الافريقي لطنجانيقا ان يتصلوا بالقاعدة الشعبية ، وان يقوموا بنشاطهم فى الاقاليم التي لا تكاد تعرف . يضاف الى ذلك ان اللغة السواحلية كانت دائما مقوما اساسيا للشخصية الوطنية لطنجانيقا ، واحدى خصائصها العميقة .

ومن المفيد ان نشير الى ان اللغة السواحلية ، حسب جميع القواعد ، بعيدة من ان تعتبر لغة «بدائية» ذلك أن ادبها الحي الشعري يرجع الى القرن السابع عشر ، ومن اجله وقع استعمال الكتابة العربية ، ولم يقتصر الامر على الكتابة ، فقد كانت تعرف ايضا من هذه اللغة ، واذا كان الرئيس نيريرى قد استطاع ترجمة « يوليوس قيصر » الى اللغة السواحلية فان هذه اللغة لا يمكن أن تكون صعبة للغاية ـ كما حاولت التايمس (Times) فى ملحقها الادبي سنة 1967 اظهار ذلك ـ مثلما يقال بالنسبة للغات افريقية اخرى. وهناك عقبات كبرى وضعت لحذف اللغة الانجليزية او الفرنسية لفائدة لغات محلية ، وحتى لو لم تكن هذه شائعة كاللغة السواحلية .

ونشير اخيرا الى ان وجود لغة وطنية افريقية واسعة الانتشار ، كاللغة السواحلية كان له تأثير كبير على القادة الافارقة الذين كانوا بصدد انشاء منظمة سياسية قوية .

وتلعب اللغة السواحلية فى اوغندا ـ التي استقلت سنة 1962 ، ويبلغ عدد سكانها 10 ملايين ـ دورا اقل اهمية من دورها فى تنزانيا ، فحتى سنة 1963 كان فى اوغندا عدد كبير من الاوغنديين يفهمون اللغة السواحلية فى مستوى قضاء حاجاتهم من السوق ، كما ان عددا اقل من ذلك يتكلم هذه اللغة بسهولة ، مع العلم بأنها تعلم فى المدارس الاوغندية خلال فترة التقارب بين البلدين ، وقبل أن يقع التخلي عنها فى سنوات 1930 . اما النقابات والاحزاب فكانت تستعمل الانجليزية فى اجتماعاتها ، وتترجم خطبها الى اللغة الاوغندية او السواحلية .

ويرجع ضعف اللغة السواحلية باوغندا لكون الطرق التجارية بها لم تكن قد تطورت بالقدر الذي حدث فى طنجانيقا ، وهناك سبب آخر اكثر اهمية وهو وجود قبيلة كبيرة وقوية كانت تتمسك باستعمال لغتها .

وبالرغم عن القرار الذي صادق عليه مجلس الشعب الاوغندي سنة 1962 بتقوية استعمال السواحلية لفائدة الوحدة بين الشعبين الاوغندي والتانزاني ، فان المسؤولين الاوغنديين ظلوا مستمرين فى استعمال لهجات قبلية فى برامجهم الاذاعية ، ولم يقتصروا على السواحلية .

وكان يبدو أن النخبة الاوغندية قد اختلفت فيما يرجع لمسألة اللغات ، واتضح هذا بمناسبة حوار جرى سنة 1962 حيث انتصر عدد من الشخصيات السامية (ثلاثة منهم اصبحوا وزراء بعد ذلك) لفائدة اللغة السواحلية ، وعلل احدهم وهو نكوبي موقفه بانه استحال عليه مدة عشرين عاما القاء خطب بالانجليزية امام الجماهير الشعبية ، بينما عارض سروانو الذي